

الباب الثاني عشر

المدارس المشتقة من التحليل النفسي

”يونج وأدلر“

كان يونج وأدلر كما سبق أن ذكرنا من تلاميذ فرويد ، وقد اتخذ كل منهما لنفسه بعد ذلك وجهة مستقلة وأنشأ مدرسة خاصة به تعتبر مستقلة عن مدرسة التحليل النفسي الأساسية .

ولكن الكثيرين يعتبرون هاتين المدرستين مشتقتين من التحليل النفسي وذلك بالنسبة لاصطباغهما رغم استقلالهما بصبغة لم تكن لتوجد لو لا علاقة مؤسسيهما السابقة بالتحليل النفسي .

وبين المدارس الثلاث نقط تعتبر نقط اتفاق ولكن الخلاف بينها أوضح ونخصوفا على المسائل الأساسية كاللاشعور والجناسية .

وبالرغم من ذلك فإن كثيرا من الاكتشاف التي ظهرت فيهما لا تعتبر مناقضة للتحليل النفسي مناقضة أساسية ، وإنما تعتبر إضافات إلى معلوماتنا عن الإنسان إذا نظرنا إليها من الناحية السيكولوجية الصرفة ، وذلك مثل ”الأنماط“ ، عند يونج ومثل فكرة ”الشعور بالضعف“ عند أدلر ، وسنتهم في هذا الباب بإيراد هذه النواحي ونمر على سواها سرا سريما .

(اشتهر يونج بالأنماط النفسية^(١) التي وصفها ، فهو يميز بين نمطين متميزين من الناس المنقبض^(٢) والمنبسط^(٣) .)

والمنقبض شخص تتجه طاقته الغريزية إلى داخل نفسه ، وتكيفه على البيئة التي يعيش فيها يجعله ينظر إلى البيئة من وجهة النظر الشخصية ، فهو يحاول

أن يكتف الحقائق والأشياء طبقا لحاجاته النفسية . أما المنبسط فهو شخص يهتم بالعالم الخارجي كما هو ولا يحاول أن يخضعه لزعاته واتجاهاته النفسية ، هو شخص يقبل العالم ويتعامل معه كما هو في الواقع ، بل إنه ليكتف نفسه حتى تلائم هذا العالم المحيط به .

وفي نظر يونج أن الانسان الذي يكون منقبضا في الشعور يميل إلى أن يكون منبسطا في اللاشعور وبالعكس .

والمنقبض شخص يميل للعزلة والانعزالية ، ويهاب الناس ويظهر على وجهه الخجل حينما يواجههم ، والتلثم حينما يضطر إلى محادثتهم ، هو شخص يجعل حياته ملكا له يحيطها بسياج من التكم والاستتار ، لا يميل لابتداء آرائه ، أو للاشتراك في المناقشات العلنية ، وإذا اختار ملابسه فضل الألوان الفاتمة على الألوان الزاهية ، وإذا اختار مهنته فضل المهنة التي تسمح له بالتفكير والانتاج بعيدا عن الاحتكاك بالناس ، على مدى واسع ، شخص قليل التعرف بالناس ، قليل الأصدقاء ، تكاد تتبينه في مشيته وفي لفتته وفي مصاحفته باليد ، يظهر انقباضه في أسلوب كلامه وأسلوب كتابته ، بل وفي تنسيق بيته وفي نظام حياته وفي الأعمال التي يفضل مزاولتها والكتب التي يفضل قراءتها ، يظهر في جده وفي هوايته ، في مرحه وفي مبادئه ، وبالجملة فإن الانقباض طابع يطبع حياة الشخص ويظهر في مختلف ألوان سلوكه . ومن الغريب أن الشخص المنقبض إنما هو منقبض في سلوكه الظاهري فقط ، أي أنه منقبض من وجهة الشعور فقط ، أما من ناحية اللاشعور فهو منبسط ، راغب في الاختلاط والاجتماع متجه إلى العالم المحيط به ، يأنس إليه من أعماقه ولكنه يهابه في ظاهره .

أما المنبسط فهو شخص يتجه بكافة نفسه إلى البيئة ، يأنس إلى الناس ، ولا يهابهم ، يحدث القريب والبعيد بلا خوف ولا وجل ، يفعل ما يحلوه بلا كثير تحفظ ، يكثر من المعارف والأصدقاء ، يلبس الزاهي من الألوان ، ويظهر انبساطه في مختلف نواحي حياته المختلفة . ومن الغريب أيضا أن أولئك المنبسطين الذين نراهم يخطبون الجماهير ولا يهابونها ويتحركون في المجتمع ولا يتحفظون في القول أو الفعل ، إنما هم في أعماقهم منقبضون وكأن مظهرهم هو رد الفعل "للمخبرهم" كالبيان الرعدي الذي إذا واجهته المخاطر انقلب جريئا مجازفا بجياته لايهاب شيئا .

وبين هذين الطرفين المتناقضين ، يقع أوساط الناس ممن يتراوح سلوكهم بين الانبساط والانقباض فتريد في أحدهم درجة الانبساط بمقدار ما تقل درجة الانقباض وبالعكس ، وهؤلاء يكونون الأغلبية الكبرى بين الناس .

والانبساط أو الانقباض قد يكون مظهرا سليا عاديا وقد ينقلب إلى مظهر شاذ مرضي . فإذا زاد الانقباض إلى الحد الذي يجعل الشخص راغبا عن الحياة الجماعية إلى الدرجة التي يجعل من حياته جحما ، والتي تجعل من انقباضه عبئا لاحتتمله مطالب الحياة العادية ، فيزوى حيث يجب الظهور والإقدام ، ويهرب من تكاليف الحياة ، ويرى الأشياء والحوادث بمنظار قائم مقلوب أو حث إليه به نفسه المنقبضة ، إنما يعتبر شاذا لا تقوم حياته على مواجهة الواقع .

كما أن المنبسط المتطرف في انبساطه ، الذي يصبح عبئا على الناس ، ينتقل من جمع إلى جمع يتحدث حيث يجب السكوت ، ويقول ما لا يحسن أن يقال ، لا يجد جمعا إلا وقف فيه خطيبا ، ولا حادثا إلا دخل فيه شاهدا ، ولا شخصا إلا أوقفه يحدثه عن نفسه ، يطارد من يعرف ومن لا يعرف من الناس ، ولا يجد في نفسه داعيا يدفعه إلى تحفظ أو نجل أو اعتكاف ، فهو شخص زاد تطرفه حتى أصبحت حياته العملية والاجتماعية معرضة للخطر وأصبح في عداد الشواذ .

وقد يصل الأمر بهذا وذاك إلى أن يصبح احتماها مستحيلا على الناس ، فيجدان في النهاية مكانهما في مستشفيات الأمراض العقلية بجانب غيرهما ممن قُصُرَ المجتمع عن احتماها . وإذا دخلت أحد هذه المستشفيات فإنك تجد النمطين ممثلين تمام التمثيل ، فتجد فريقا من المرضى قد اختلى كل بنفسه ، وانزوى عن العالم الذي يحيط به ، منهم من وقف في وسط المكان وقد غطى رأسه وجسمه بغطاء يخفيه عن الأعين ويخفي عنه ما يحيط به من الناس والأشياء ، ومنهم من وضع رأسه بين يديه في ركن قصي ورفض الكلام أو تناول الطعام ، ومنهم من نذر أن يفتح فمه بكلمة ... ثم تجد آخرين يهرولون ويجرون ويصيحون ويخطبون ويهتفون ، لا يسكت لهم صوت ولا تهد لهم حركة .

هذان هما النمطان الأساسيان للحياة العقلية كما وصفهما يونج وقد أطلق يونج على هذين النمطين "نمطي الاتجاه العام" (١) . وعاد فقسّم الناس إلى أربعة "أنماط وظيفية" (٢) هي التفكيرى (٣) ، والوجداني (٤) ، والاحساسى (٥) ، والالهامى (٦) .

فالإنسان قد يكون منقبضا تفكيريا ، أو منقبضا وجدانيا ، أو احساسيا ، أو الهاميا وكذلك بالنسبة للمنسط . فلكل فرد نمطه الاتجاهى العام ثم نمطه الوظيفى الذى يحدد الكيفية التى يظهر بها النمط الأول فى سلوكه .

فالنمط التفكيرى يشمل أولئك الذين يغلب عليهم الفكر فى توجيه سلوكهم ، فإذا كان التفكير متوجها إلى داخل النفس كان الشخص منقبضا ، أما إذا كان متوجها إلى خارجها كان منبسطا ، ومعظم الفلاسفة من النوع الأول بينما نجد الاجتماعيين وبعض علماء الطبيعيات من النوع الثانى .

أما النمط الوجداني فيمثل الشخص الذى تتحكم فيه عواطفه أكثر من فكره فإذا كان منقبضا كانت عواطفه قوية عميقة ، أما إذا كان منبسطا فإن منطق حياته يكون مستمدا من الانفعالات والعواطف السطحية ويغلب أن يكون النساء من الطراز الأخير .

أما النمط الإحساسى فهو الذى يهتم بالعالم الخارجى كما يظهر له عن طريق الحواس كاللنان الذى يتأثر بالألوان والأشكال والأصوات التى تعرضها له الطبيعة ، تأثرا يرتبط أشد ارتباط بالأثر النفسانى الداخلى ، ولذلك فهو منقبض ، أما الرجل "العملى" الذى يهتم بالعالم الخارجى كما هو ، ويراه كما تعرضه له الحواس بلا نقص ولا زيادة فهو الاحساسى المنبسط .

وأخيرا نجد الالهاميين ، أولئك الذين يسير حياتهم "الالهام" أو الفطنة التى لا تستند إلى منطق واضح أو إلى عاطفة واضحة . ونجد المتصوفين من النوع الالهامى المنقبض ، بينما نجد بعضا من الخطباء والسياسيين مثل لويد جورج المشهور من النوع الالهامى المنبسط .

Sensation (٥)

Thinking (٣)

General attitude Types (١)

Intuition (٦)

Feeling (٤)

Functional (٢)

هذا ملخص قصير لنظرية يونج وهى نظرية قد لاقت أكبر التقدير فى محيط
المشتغلين بعلم النفس وقد أوحى بكثير من البحوث التجريبية ، وقد اختلف
يونج مع فرويد فى اعتبارين : (الأول) أن الطاقة الغريزية الأصلية ^(١) أصبحت
عنده تشمل مجموع النزعات على اختلافها بينما هى منصببة عند فرويد على مكونات
الغريزة الجنسية ^(٢) .

والاشعور عند يونج يشمل طبقة أعمق من الطبقة التى وصفها فرويد فهناك
ما يسميه "الاشعور الجمعى" ^(٣) الذى يتكون من الأصول البدائية لما سر
على الانسانية فى مراحلها المختلفة من أفكار وحاجات وآمال . ويضاف هذا
الاشعور الجمعى إلى الاشعور الفردى عند كل شخص ، وهو الذى يشمل ما تكون
من الكبت فى حياته الخاصة .

ووظيفة التحليل عند يونج لا تقف عند ماضى الشخص وإنما تمتد إلى مستقبله ،
فالأحلام مثلاً لها مهمة وظيفية تتعلق بالمستقبل ، فوق مهمتها التفسيرية المتعلقة
بالماضى ، فعناها لا ينصب على الأشياء والأشخاص فقط وإنما يتعلق أيضاً
بالاتجاهات العقلية التى ترمى إلى أغراض مستقبلية ، كالميل للتحرر من النزعات
البدائية أو الوصول إلى السمو الفكرى .

سيكولوجية أدلر ^(٤) :

وتتلخص سيكولوجية أدلر فى أن الغرض الذى يرمى إليه الفرد هو الوصول
إلى القوة والسيطرة والسمو ، وأن هذا الدافع نحو السيطرة مشتق من الشعور
بالضعف والضعفة الذى يحس به الفرد فى طفولته . فليس هناك ما يهرى نظر
الطفل فى مبدأ حياته مثل الفرق الهائل الذى يلمسه بين ضعفه وقلة حيلته وبين
مظاهر القوة والقدرة التى تحيط به . وعلى ذلك تصبح حياته صراعاً فى سبيل
الوصول إلى السيطرة والقوة . وبما أن الإناث يبقين فى منزلة ثانوية من حيث
السيطرة طول حياتهن ، فإن هذه النزعة تظهر عندهن بكيفية خاصة فتبدو فى صورة

Collective Unconscious (٣)

Components (٢)

Libido (١)

Adler : Understanding Human Nature & The Science of Living (٤)

”رغبة شديدة متغالية في الذكورة“ تبحث عن التحقق بصور متعددة وينسب إليها كثير من المتاعب التي يلقيها .

وبما أن كل فرد يكتشف في نفسه نقطة ضعف أو نقص في ناحية ما ، في الجسم أو في العقل ، فإن جهوده في الوصول إلى السيطرة سرعان ما تتأثر بهذا الكشف ، فيسمى إلى التغلب عليه بإحدى وسائل ثلاث :

(الأولى) مباشرة : وهي ترمي إلى التغلب على الضعف ، والوصول إلى القوة في نفس المجال الذي يشمر فيه الفرد بالضعف . وخير مثال لذلك هو ديموستينيس الخطيب الروماني المشهور ، الذي بدأ حياته الكلامية بالفأفأة ، ومالبت أن هاجم هذا الضعف في نفسه وأصبح أشهر خطيب عرفه العالم .

(الثانية) غير مباشرة : وهي ترمي إلى محاولة السيطرة والسمو في مجال آخر يختلف عن ذلك الذي يجد فيه الشخص ضعفه ، فالشخص الضعيف الجسم يحاول أن يبرز في الناحية الفكرية ، وضعيف العقل يحاول أن يسيطر في الناحية الجسمية ، ومن رزق وجهها قبيحا يحاول أن يجتذب الناس إلى سلطانه بأن يصطنع نفسا جميلة .

(الثالثة) وهمية : يلجأ فيها الشخص إلى الهروب من مواجهة ضعفه في حياة الواقع ، فيخلق لنفسه جوا وهميا يسيطر فيه ، أو يصطنع ”سببا“ ينسب إليه فشله وضعفه ، كمرض جسمي أو عقلي فكأنه يقول بلسان الحال ”هأنذا مريض لا أستطيع العمل ولو استطعته لبرزت غيري وظهرت على منافسي“ .

وهذه الطريقة لمواجهة الضعف طريقة مَرَضِيَّة يكون السلوك فيها من قبيل الأعراض التي لا تؤدي غرضا واقعيا ولا قيمة لها في الحياة العملية .

ولكل فرد ”أسلوب للحياة“^(١) يصطنعه في مبدأ حياته للتغلب على مشكلات الضعف التي تواجهه ، ويتوقف هذا الأسلوب على ظروف طفولته وهذا الأسلوب هو الذي يشتقه من مواجهة المشكلة الأولى من مشا كل حياته وهي السيطرة على المجتمع وهو طفل ، وهناك فرق كبير بين أسلوب الطفل الذي ينشأ وحيدا بين

(١) Style of Life

جمع من الكبار، وذلك الذى ينشأ بين جمع من الأطفال ، كلهم يكبرونه ويفوقونه قوة ومقدرة . هناك فرق بين أسلوب الطفل الجميل والطفل الماهر . بل إن هناك فرقا بين أسلوب الطفل الأول والطفل الثانى والطفل الأخير فى العائلة . فلكل منهم ظروفه الخاصة التى تتوقف على نوع المجتمع الذى يشعر فيه بالضعف ويريد أن يصل فيه إلى القوة وبين الأدوات التى تضعها طبيعته ويضعها المجتمع بين يديه ليستخدمها .

وهذا الأسلوب هو نفسه الأسلوب الذى يعالج به الطفل ما يتلو من مشكلات حياته الأساسية . فهو يختار المهنة التى يجد فيها تحقيقا لغرض السيطرة الذى اتجه إليه ، ويجد فى ثناياها الوسائل التى تجعل لأسلوبه فرصة النجاح . كما أنه فى حبه وزواجه يرمى إلى نفس الأغراض ويتأثر بالأسلوب الأول .

ذكرنا طرفا عن هذين المذهبين بشئ من التفصيل لأنهما يعتبران فى عرف الكثيرين مشتقين من التحليل النفسى . وليس معنى الاشتقاق الاتفاق ، بل بالعكس فإن هناك خلافا حقيقيا بين هذه المدارس ، فأدرك قد هجر ناحيتين أساسيتين من التحليل النفسى أولاهما الغريزة الجنسية والثانية اللا شعور ، أو على الأقل قد قلل من أهميتهما إلى الدرجة القصوى .